

الطُّفيل بن عَمرو الدَّوسيّ

رجع أحمد من المدرسة مُتأخّرا ، فاعتذر لوالده قال : آسف يا أبى لتأخّرى ، فقد كنّا ندعو للمعركة الانتخابيَّة .

سأله والده : أيَّةُ انتخاباتٍ يا أحمد ؟

قال أحمد : انتخابات رائد الفصل يا أبي ، فنحن جميعًا نقف في صف صديقنا عاصم ، فالمعركة حامية ، لوُجود خصم قوى ينافِسه .

قالَ والده : وهذا لَمصلَحتِكم ، فالمُنافسةُ عادةً تُـؤدّى إلى تَحسين الأداء .

قال أحمد : نحن مع صديقِنا عاصم ، ولن نُعيرَ مُنافِسَه أيَّ اهتمام . سأله والده: ألم يفُز عاصم في السَّنتَينِ الماضِيَتَين ؟ فلماذا لا تغيرونه هذه السَّنة ، فتستفيدوا بأفكار جديدة ، ومبادئ مختلفة ؟

تأمَّل أحمدُ في كلام والدِه وقال : ولكنَّ عاصمًا صديقُنا ، ولن نسمحَ بَهزيمَتِه .

قال والده: المُصلَحةُ فوقَ الصَّداقةِ يا بُني ، واختياركم رائدًا جديدًا للفصل لن يضرَّكم شَيئا ، ولكنَّه سيُفيدكم حَتما .

قالَ أحمد : أتعنى يا أبي أن نستمع للمُرشَّحِ الجديد ، ونقارنَ بينَه وبينَ صديقِنا عاصم ؟

ابتسمَ والِدُه وقال: قالَ واحدٌ من صَحابةِ رسولَ الله _ صلَى الله عليه وسلَم _ قبلَ اسلامه، مقولَةً الله _ صلَى الله عليه وسلَم _ قبلَ اسلامه، مقولَةً استمعْ اليها وتأمَّلُها، قال: ثكِلتكَ أمُّك يا طُفَيل. الله لرجلٌ لبيبٌ شاعر، وما يخفَى عليك الحسنُ من

القبيح ، فما يَمنعُك أن تسمعَ من الرَّجل ما يقول ، فإن كان الَّذي يأتي به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته . كان الَّذي يأتي به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته . فكر أحمدُ في المقولةِ فقال : كلامٌ معقول ، ولِمَ لا ؟ ، ولكن من هو هذا الصَّحابيُ يا أبي ؟ هلا حكيت لي قصته ؟

استجاب له والده ، وراح يَحكى قِصَّته ، قال : إنّه يا بنيّ الطَّفَيلُ بنُ عَمرو الدّوسيّ ، نِسبةً إلى قبيلة «دوس» النّتي كان سيّدا لها في الجاهلِيّة ، وكان كريمًا عطوفًا يُطعِم الجانع ويُومّنُ الخانف ويُجيرُ المستجير ، كما كان سيّدا مُهابًا جَليلا في قومِه ، عِلاوةً على أنّه كان شاعرًا مُرهَفا رقيق الشُّعور يتردَّدُ دائما على مكّة في مواسم سوق عُكاظ ، حيث يفد إليها الشُعراء من كل بقاعِ الأرض ، وكان الطُفيل من الشُّعراء البارزين .

وبدأ النّورُ يسَطعُ في مكّة ، وبدأ رسولُنا الكريم -صلّى الله عليه وسلّم - يدعو لعبادة الله الواحد الأحد ، ونبذِ عبادة الأصنام ، فخافت قُريبش على مكانتِها في الوجود وعلى زعامَتِها بين القبائل ، فعمِلت على إطفاء نور الله والصدِّ عن الدّين الجَديد بكلِّ وسيلة ، سواءً أكانت مَشروعةً أم غَيرَ مشروعة . كما حرصت على ألاّ يلقى الطُّفيلُ محمَّدا - صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - فيُعلنَ إسلامه ، فتكون موهبتُه الشّعريّةُ سلاحا في خدمـة الإسلام ، فكان كلَّما قدم إلى مكِّة ، استقبلوه أعظم استِقبال ، ورحَّبوا بـه أكـرمَ ترحيب ، وداوموا علـي تَحذيره من مُحمَّد _ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم _ فقالوا لــه : يا طُفَيل إنك قدِمت إلى بلادنا ، وهذا الرَّجل الَّذي يزعُم أنَّه نبيَّ قبد أفسد علينا أمرَنا ، ومزَّق شملَنا ، وشتَّت جماعتنا ، ونحن إنَّما نخشَى أن يجِلُّ بك وبزَعامتِك فى قومِك ما قد حلَّ بنا ، فلا تكلم الرَّجل ، ولا تستمعنَّ منه شيئا ، فإن له قولا كالسِّحر يفرِّق بين الابن وأبيه ، وبين الأخ وأخيه ، وبين الزُّوجة وزوجها .

قال أحمد: ألهذه الدَّرجة كانت قريش تخشَى إسلامه؟ قال والده: كانت للشّاعر في تلك الأيّام يا أحمد مكانة عظيمة ، بمثابة وسائل الإعلام في أيّامنا هذه ، وكان لا يخلو مجلس من المجالس من الشُّعراء ، ومن إلقاء الشّعر وسماع الشّعر .

ونجد أنَّ الطُّفيلَ تأثّر بكلام قريسش وبتحذيرها ، فعندما ذهب للطَّواف بالكعبة حشا أذنيه بالقطن حتى لا يسمع محمدًا - صلى الله عليه وسلم - ولا يُفتَنَ بقوله . ولكنَّ الله تبارك وتعالى يَهدى من يشاء ، وإرادته فوق كلَّ إرادة ، فعندما رأى الطُّفيل الرَّسول يُصلى ، أسره منظرُه ، واستولى عليه خشوعُه وورعُه وتُقاه ، فاقترب منه وقال في نفسه مقولته التي سبق أن قالها : فاقترب منه وقال في نفسه مقولته التي سبق أن قالها : للذا لا أسمع ما يقول ، فإن كان خيرًا قبلته ، وإن كان شرًّا ابتعدت عنه ؟

واستمع الطُّفَيل لقول النَّبيّ - صلّى اللَّه عليه وسلَّم - فأنشرح فؤاده للدِّين الجديد فأعلن إسلامه ، وخرج إلى القُرشيّين منشدا :

ياذا الكفِّين لست من عبادك

ميلادنا أقدم من ميلدك

وذو الكفين صنم كانت تعبده قبيلة «دوس ». فوقعت كلماته على قريش وقوع الصاعقة ، ولكنها خشيت أن تمسه بسوء ، فهو سيد قبيلته «دوس » ، فإن أصابه مكروه اشتعلت نار الفتنة بين القبائل .

ومكث الطُفيل بمكة يتعلم تعاليم الدّين الّـذى أحبّه ، وبعد أن أثمّ حِفظ ما تيسّر له من القرآن استأذن رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - فى أن يعود لقومه الله - صلّى الله عليه وسلّم - فى أن يعود لقومه ويدعوهم إلى الإسلام ، قال : إنّى يارسولَ اللّهِ امرؤ مطاعٌ فى عشيرتى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى

الإسلام ، فادع لى الله أن يجعل لى آية تكون عونًا لى فيما أدعوهم إليه .

فدعا _ صلّى الله عليه وسلّم _ ربّه قال : اللّهم اجعل له آية .

وكانت الآية التى دعا بها - صلَّى الله عليه وسلَّم - على مشارف القبيلة ، فأضاء الله بين عَيني الطُّفيل ضياءً وهَاجا كأنَّه السِّراج . فَخشِى الطُّفيلُ أَن يَظنَّ قومُه أَنَّ ذلك من غضبِ ذى الكُفينِ عليه ، فتضرَّعَ إلى ربِّه ألا تكونَ الآيةُ فى وجهِه ، فاستجاب الرَّهن لدُعائِه فكانت الآيةُ فى سوطِه ، حيثُ أضاء رأسُ سوطه كالقِنديل المعلق .

وبدأ الطُّفيلُ يدعو قومَه لعِبادة اللَّهِ ونبذِ عبادة الأصنام ، فكانت النَّتيجةُ أن آمن أهلُ بيتِهِ جميعا – أبوه وأُمُّه وزوجتُه وابنُه عَمرو - أمّا أهلُ قبيلته فلم يجد منهم نفسَ القَبول ، فأعرضوا عنه جميعا إلا واحِــدا ، هــو أبــو هُريرَةَ الَّذي ما أن سمع دعوته إلا وسارعَ إلى الإسلام .

قال أحمد : لماذا لم تُسلِمْ قبيلة « دوس » يا أبى ؟ أليسَ طبيعيًّا أن تتبعَ القبيلةُ زعيمَها ؟

قال والِدُه: هذا صحيحٌ يا أحمد ، ولكنَّ قبيلة « دوس » كانوا يُبجِّلون ذا الكفَّين ويَعبدونَه ويتذَلَّلون إليه ، وأهمُّ من ذلك أنَّهم كانوا يخافونه أشدَّ الخوف ، حتى إنَّهم كانوا يخافون من أهل بَيتِ حتى إنَّهم كانوا يتوقَّعونَ انتقامَ ذى الكَّفينِ من أهل بَيتِ الطُّفيل ، لتَسفيههم إيّاه ، وكُفرهم به.

وعادَ الطُّفَيل إلى رسول اللَّه ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ حزينا ، وقال : قلوبٌ عليها أكِنَّةٌ وكفرٌ شديد . . غلب على « دوس » الفُسوق والعِصيان .

فتوضًا رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وصلّى لله ودَعاه : اللهـمُ اهـدِ « دوسًا » ، اللهـمُ اهـدِ « دوسًا » ، اللهـمُ اهـدِ « دوسًا » . ثـم التفـت إلى

الطُّفَيلِ وقال : ارجِع إلى قومِكَ وارفُق بهم وادعُهُــم إلى الإسلام .

قال أحمد: وماذا بعد يا أبى ؟ هل أسلَمت « دوس » ؟ قال والِدُه: نعم أسلَمت ، ويرجع ذلك لدُعائِه م صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ، ولصبر الطُّفيل وإصراره ، فما زال يَدعوهم حتَّى أسلم ثمانون بيتًا من « دوس » ، هم أغلب القبيلة .

وهاجر الطُّفيلُ وأفرادُ قبيلتِه إلى المدينة ، لمبايعة رسولِ اللَّه . وكان ذلك إبّانَ غَزوةِ خيبر . وأبّى الطُّفيلُ وعشيرتُه إلا أن يشاركوا في الغُزوة ، وطلبَ من النّبيّ - صلّى الله عليه وسلَّم - أن تكونَ لهم مَيمنَةُ الجَيش ، وذلك عندما أحسَّ بقُوَّةِ الرُّكن الجنوبيِّ من قلعة اليَهودِ ، وقال :

ـ يـا رسـولَ اللَّـه اجعَلنـا مَيمَنَتــك واجعــل شِــعارَنا « مَبرور » . ولانتِ الحصولُ وفتحت خيبر ، وكانَ هذا هو آخر عهدِ اليهودِ بالله ينة . ولبِث الطُّفيلُ مع رسولِ الله _ صلَّى الله عليه وسلَّم _ حتى أنمَّ الله عليهم فتح مكة ، صلَّى الله عليه وسلَّم _ حتى أنمَّ الله عليه وسلَّم _ فى ثمَّ استأذن من رسولِ الله _ صلَّى الله عليه وسلَّم _ فى السَّفرِ إلى « دوس » لإحراقِ ذى الكفَّين صنمِها المَّعبود .

وتمَّ إحراقُ الصَّنَم على مَشهدٍ مـمَّن لم يُسلموا بعد ، وهـم يَـــرَبُّصون السَّـوءَ بـالطُّفَيل ، ويتوَقَعونَ أن تكــونَ نِهايتُه إذا مسَّ ذا الكَّفين بُضرَ .

وما أن تم إحراقُ الصنه إلا وأسلم الجميعُ في « دوس » فقد رَأُوا مدَى ضعف ذى الكفين وهوانه ، حتى إنه لم يُستطع أن يكف الأذى عن نَفسيه .

ولازمَ الطُّفَيلُ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - حتى لقِى الرَّسولُ ربَّه ، وخلَفَه أبو بكر الصِّديق . وحِزنَ الطُّفَيل وابنُه عمرو لردَّةِ بعض النَّافِقينَ عن الإسلام ، فكانا حَريصَيْنِ على الْمُشارِكَةِ في حروبِ الرِّدَّة ، ليحَفظا مكانةَ الدِّين وهَيْبَتَه .

وشاركَ الطُّفَيل في حرب طُلَيحة الأسدى ، حتى قُتِل طُلَيحة . وحارب في نجد ، وكان ضِمنَ الجَيشِ اللّذي بعشَهُ أبو بَكرِ الصَّديقُ إلى اليمامَةِ لحربِ رأسِ الكُفرِ والشّركِ مُسيْلَمة الكذّاب .

وفى ليلة المعرَّكة ، رأى الطُّفَيلُ رؤيا استَبشَر بها فقال: إنَى رأيتُ رأسى خُلِق ، وأنّه خرج من فَمى طائر ، وأنَّ امرأةً أدخَلتنى فى بطنِها ، وأنَّ ابنى عَمرًا جعل يَطلُبنى حَثيثا ، لكنَّه حيلَ بينى وبينَه .

وأوَّلَ رُؤياه مَستَبشِرا فقال : أمَّا حَلَقُ رأسى فذلك أنَّه يُقطَع ، وأما الطَّائر الَّذَى خرجَ من فَمى فهو روحى ، وأمّا المَراةُ الّتي أدخلتني في بطنِها فهي الأرضُ تُحفَرُ لي فأدفَنُ فيها ، وإنّى لأرجو أن أقتلَ شهيدا ، وأمّا طلبُ ابنى لي فيَعنى أنَّه يطلبُ الشَّهادةَ الّتي سأحظى بها طلبُ ابنى لي فيَعنى أنَّه يطلبُ الشَّهادةَ الّتي سأحظى بها

ولكِنَّه لايُدِركُها في هذه المعرَكَة ، ولكنَّه يُدرِكُها فيما بعد .

قالَ أحمد : يالَلشَّفافِيَةِ والإيمانِ الرَّاسِخ ، إنه رأى رؤيا اسْتِشهادِه ، ومع ذلك تقدَّم للمعرَّكةِ ولم يَخْشَ .

قالَ والدُه : إنَّه إنَّما دخلَ المعركةَ طالبا الشَّهادَة ، فلماذا يخافُ والشَّهادةُ هي مُنتَهَى أملِه في الحَياة .

وما لبِثَ وهو يُطيحُ برُءوسِ الشَّرك ، أن رماه رجـلٌ برَميةِ سيفٍ غـادر قطعَ عُنقَـه ، فخـرَّ شَـهيدًا وصدَقـتْ رؤياه .

وتحمَّس إبنه عَمرو عِندَما رأى اسْتِشهادَ أَبيه ، فراحَ يَكيلُ الضَّرَباتِ يَمينًا وشِمالاً طلبًا للشَّهادَة ، ولكنَّ أجلَهُ لم يَحِن بعد ، وإن كانت يَمينُهُ قُطِعت .

قال أحمد : لابدُّ أنُّها كانت مَعرَكةً شُرسَة .

قال والده : هذا هو الوَصفُ الصَّحيــ لَها ، فَمُسيَّلْمَةُ وأعوانه قُوَّةٌ لايُستهانُ بها ، ولكنَّها انهارت

تَحتَ وطأةِ سُيوفِ المُسلمينَ الجَبَارَة ، فَقُتِل زعيمُ الشُركِ مُسْيلِمَة ، وقُتِل الكثيرُ من أعوانِه ، وعادَ الكثيرون من المُسلِمينَ الَّذين ارتَدوا عن رِدَّتِهم ، وتمنَّى عَمْرو أن يلحق بأبيه وينالَ شرف الاستِشهادِ في سَبيلِ الله ، ولكنَّ أُمِنيَته لم تَتحقَّق إلا في عهدِ ثانى الخُلفاءِ الرّاشِدينَ عُمرَ بنِ الخَطّاب في معركةِ اليرموك ، عندما خرجَ لمُلاقاةِ الرّوم تحت إمرة أبي عُبيدة بنِ الجَرّاح .

قال أحمد : إنّها قصَّةٌ رائعَة يا أبى ، قِصَّةُ شهيدين بذلا روحَيْهِما فى سَبيل الله ، قِصَّةُ إيمان راسخ ، وعَقيدَةٍ قويَّة ، وإصْرارِ على نَشرِ الدّين .

قال والده: أرأيت يا ولدى لو أنَّ الطُّفيلَ أَصَمَّ أُذنَيْهِ عن الدَّعوة ، والاستِماع لرسولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلَّم - لكانَ خَسِرَ الكَثير ، وخَسِرَ الإسلامُ أحدَ أبطالِهِ العُظَماء .

قالَ أهمد: هذا حق ، فيجب على الإنسان أن يَستعمِل عَقلَه في التَّمييز بينَ الصَّوابِ والخَطأ ، ولا يَعتمدَ على آراء الآخرين .

وغدًا إن شاءَ الله سَنعقِدُ اجتماعًا مع المُرشَّحِ الجَديدِ لريادَةِ الفَصل ، وسنُناقشُه حتى نطَّلعَ على أَفكارِه . ليكون انتخابُنا للأصلح مِنهُما إن شاءَ الله .